الكتب

ضحى الاسلام

الجزء الثانى

تأليف الأستاذ أحمد أمين

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

لقد أخرج للناس الأستاذ الجليل (أحمد أمين) كتابه ضحى الاسلام ، الجزء الثانى منه ، فقرأته قراءة ناقد متفحص ؛ فألفيته قد حوى جهداً محموداً ، ونهج منهجاً جديداً . استقصى الأستاذ فأحسن الاستقصاء ، وقرأ فأجاد القراءة ، وفهم فأتقن الفهم ، واستنبط فوفق إلى الصواب ، فى حسن ترتيب ، وجمال تصوير ، وقدرة على الاحاطة ، وصبر على التفصيل

وصف الأستاذ فى الفصل الأول من « الضحى » قوانين الرق العقلى ، ثم طبقها على الفكر العربى ، وتدرج من ذلك إلى انقسام العلوم عند العرب فى العصر العباسى ، ثم ختم هذا الفصل بالكلام على حرية الرأى فى ذلك العصر ، فكان الأستاذ فى هذا الفصل نسيج وحده ، مبتكراً لمنهج جديد فى البحث ، وأسلوب طريف فى التعليل

وفى الفصل الثانى والثالث تكلم الأستاذ على معاهد التعليم المفيدة ، ومتى نفكر فى محاربة ذلك الركود الأدبى الذى يكاد يشل عندنا كل تقدم فكرى وأدبى ؟

بلسودسكى الشاعر والكاتب

لم يكن المارشال بلسودسكى بطل بولونيا القومى الذى توفى منذ أسابيع قلائل جندياً وسياسياً عظيماً فقط ، ولكنه كان كذلك شاعراً وكاتباً له آثار فى الشعر والنثر ، والمعروف عن المارشال أنه تربى وتكون فى معترك الصحافة ، وكان فى شبابه يحرر جريدة ثورية سرية ، كان ضبطها سبباً فى الحكم عليه بالنفى إلى سيبيريا ؛ ولما قبضت القيادة الألمانية على بلسودسكى أثناء الحرب الكبرى حينما ارتابت فى حركاته وخشيت من نفوذه على الجيش البولونى ، وزجته فى قلعة مجدبرج لم يجد المارشال وسيلة لتخفيف آلام الأسر سوى الكتابة ، فوضع كتاباً سماه « معاركى الأولى » ، وصف فيه ما خاضه من المعارك الثورية ضد جنود القيصر ، ثم المعارك الأولى التى خاضها عند نشوب الحرب الكبرى بأسلوب بليغ ينم عن مقدرته الكتابية ، وأصدر بعد الأفراج عنه كتاباً آخر عنوانه « سنة ١٩٢٠ » وصف فيه الحرب الروسية البولونية ، وكان المارشال ينظم الشعر ، ويشغف بقراءة دواوين أكابر الشعراء الفرنسيين ، مثل لامرتين وهوجو وبودلير ، وفيرلين ومالارميه . ومما يؤثر عنه قوله : « إن الشعراء هم أقرب الناس إلى رجال العمل ! »

مركز هوجو فى النثر

ما زالت الصحف الأدبية الفرنسية تفيض بالحديث عن فيكتور هوجو ، وعن نظمه ونثره ورفيع منزلته فى الأدب الفرنسى ، وذلك لمناسبة الأحتفال بالذكرى الخمسينية لوفاته حسبما أشرنا فى العدد الماضى ، وليس بين النقدة خلاف فى المنزلة الرفيعة التى تبوأها فى الشعر ؛ بيد أن هنالك من يقول بأن هوجو يتبوأ فى النثر أرفع من هذه المنزلة . وقد شهد لهوجو بالعظمة فى النثر كتاب عظام مثل بلزاك صديقه ومعاصره ، ثم جاء موريس باريس بعد ذلك فقال : « إن هوجو أعظم ناثر فى القرن التاسع عشر » . وقد وصفه أخيراً كاتب كبير فى إحدى المجلات الأدبية ، فقال : إن هوجو الناثر يتفوق فى تحليل أشد عواطف الروح وأحوالها تعقيداً ، وأعمق أزمات الضمير ، ومعارك الانسان والقدر . ولمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر الكبير أصدرت إحدى دور النشر الباريسية الكبرى طبعة كاملة من جميع مؤلفاته تقع فى ٨٢ مجلداً

ودرجات التدويس ، وعلى المكتبات والمناهج ، ثم انتقل بعد إلى الحديث عن مراكز الحياة العقلية ، فأبدى فى مطاوى هذا البحث عن شخصية قوية ، ورأى مستقل . وقد وفق الأستاذ التوفيق كله فى المقابلة بين الروايات المختلفة عن (بيت الحكمة) وفى الاطمئنان الى نتيجة معقولة حسنة ، ولاسيما عند استخدام الأستاذ فى تحقيقه « فقه اللغة » وتاريخ الألفاظ . فهو طرافة فى التفكير ، وجدة فى الأساليب . وما أجل الأستاذ وهو يعلل ضعف الفن فى الحجاز فى عصر الدولة العباسية تعليلاً متواضعاً مقنعاً . أما كلامه عن (المربد) فى هذا الفصل ، فكلام المستقصى الدارس . ولست مغالياً إذا قلت إن باحثاً لم يسبق الأستاذ فى إلقاء نور وضاء قوى على هذا (المربد) وبيان أثره فى الحياة العقلية عامة ، واللغوية خاصة ، بل كان المؤلفون يعسونه مساً رقيقاً ، ويمرون به فى أبحاثهم مراً رفيقاً

وجاء الأستاذ أيضاً فى هذا الصدد بنظرية العصبية للقطر ، ثم للبلد ، ثم تدرج بذلك الى نشوء مدارس النحو المختلفة حتى وقف بمصر فاذا بالشعور القوى الخالص يملك على الأستاذ عواطفه ، وإذا بالوطنية الصادقة تأسر عليه مشاعره ، فيأبى إلا أن يجلى مصر فى مضمار النهضة العلمية تجلية مشرقة ، فينصفها فى البحث وإن لم ينصفها الدهر فى الحظ ، فى غير محاباة ولا تحيز ، شأن العالم الورع ، والمحقق العادل

أما فى الفصل الرابع والخامس فقد تكلم الأستاذ عن الحديث والتفسير والتشريع . ومن أجدر من الأستاذ (أحمد أمين) بتوفية هذه البحوث والقيام بواجب تحقيق هذه المسائل ، فهو ابن بجدتها ، وأبوعذرتها . ولايرضينى فى الكشف عن محاسن هذين الفصلين إلا أن أشير على القارىء الكريم بقراءتهما ، وأرغب اليه فى دراستهما حتى يتذوق جمال حقائقهما بنفسه ؛ ويقف على بديع تنسيقهما بدرسه . إذ هما يقعان فيما يقرب من مائة وخمسين صفحة من الكتاب . والكتاب كله فى خمسين وثلثمائة صفحة . فجزى الله الأستاذ عن الحديث والقرآن خير الجزاء

أما فى الفصل السادس من الكتاب ، وهو الفصل الذى يمت الى الأدب فى صميمه ، ويرتبط باللغة فى أصولها . فقد بحث فيه الأستاذ اللغة والنحو والأدب ، فتراه فى هذا الفصل أميناً محافظاً على طبيعة هذه العلوم من الوقوف عند النقل والاقتصاد فى الرأى والنقد فى غير ما سرف ولا افراط

أما الفصل السابع وهو الأخير فى الكتاب فكان الكلام فيه عن التاريخ والمؤرخين . أتى فيه الأستاذ بتقسيم جميل لأنواع التاريخ ، من تاريخ فى السيرة ، وتاريخ للحوادث ، وتاريخ للأنساب ، وتاريخ للرجال ، وأخبار وقصص . فكان موفقاً جد التوفيق فى تحليله لمغازى ابن اسحق تحليل المنصف الدارس فى بصيرة نافذة ورأى حر طليق . ثم ختم الأستاذ هذا الفصل بالكلام على عيوب المؤرخين الاسلاميين ومزاياهم فأنصفهم ووفاهم حقهم

وبعد ، فأذكر ما أخالف الأستاذ فيه من الرأى ، وهى مخالفة يسيرة واختلاف هين . وقد عودنا الأستاذ تقبل ذلك بما عهدناه فيه من سمو فى الخلق ونبل فى القصد

أولا : أحصى الأستاذ فى ص (١٧٣) المذاهب الفقهية التى ظهرت فى العصر العباسى سوى المذاهب الأربعة ، ولكنه أغفل مذاهب الشيعة . مع أنها مذاهب لها قوتها ولايزال بعضها منتشراً كمذهب الزيدية فى اليمن والامامية فى العراق وايران . فلهذا المذهب أئمة ومؤلفون وكتب فقهية تطبع وتدرس

إلا إذا كان الأستاذ قد رأى تأخير ذلك إلى الكلام على عقائد الشيعة فى الجزء الآتى بعدُ من الضحى

ثانياً : ذكر الأستاذ فى ص (٢٤٥) أن من نتائج الاختلاف بين القبائل كثرة المترادفات فى اللغة العربية ثم ساق مثلاً لذلك فقال (إن السُّكّر اسمه المِبرَت بلغة اليمن)

ولى على هذا اعتراضان : الاعتراض الأول أن لفظ السكر ليس بعربى بل هو تعريب للفظ شكَر الفارسية وهى قريبة جداً فى نطقها من لفظها فى اللغة الانجليزية (Sugar) (راجع ص ٩٢ من كتاب الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدّى شير . وص ٨ و ١٠٥ من شفاء الغليل للخفاجى . والقاموس للفيروزابادى وص ٣٢٦ من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى . وج ٦ من اللسان وص ١٦٦ ج ١ من المزهر للسيوطى)

والاعتراض الثانى هو أننى كنت أود أن يذكر الأستاذ من آثار ذلك الاختلاف بين القبائل ، المشترك من الألفاظ بقسميه لأن هذا النوع له أثر واضح فى اختلاف المذاهب فى التشريع كلفظ القروء فى قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء)

ثالثا : ذكر الأستاذ فى ص (٢٤٨) أن استعمال الكلمات المعربة كثر بعد الاسلام والفتح ، ثم أخذ يسرد أمثلة للألفاظ التى تغلغلت فى اللغة إثر الفتح

واعتراضى أن بعض تلك الألفاظ التى ساقها الأستاذ كان قد دخل اللغة العربية وعُرّب منذ عصر الجاهلية فلم يكن دخوله إذن نتيجة للفتح الاسلامى . مثال ذلك لفظة (الفلفل) قال امرؤ القيس فى معلقته :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفـــل

وقال أيضاً :

كأن مَكاكِيَّ الجواء غُدَيَّةً صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

وجاء فى اللسان خمر مفلفلة أُلقى فيه الفلفل

مثل آخر لفظة (الورد)

فقد جاء فى اللسان ص (٤٧٠) من الجزء الرابع . « الورد ببلاد العرب كثير ريفيةٌ وبريةٌ وجبليةٌ . قال الزجاج فى قوله تعالى : فكانت وردة كالدهان : أى صارت كلون الورد » . وقد جاء فى القاموس أن أم طرَفةَ سميت بوردة

ومثل ثالث وهو لفظة (مسك) ويكفى فى اثبات جاهليتها فى التعريب ورودها فى القرآن الكريم قال تعالى (ختامه مسك)

رابعاً : لقد استقصى الأستاذ الكبير الفروق فى اللغة والنحو بين مدرسة البصرة والكوفة

ووددتُ لو أنه أعقب ذلك بذكر خصائص المدرسة البغدادية فى النحو أيضاً . وهو قد ألمع إلى هذه المدرسة فى ص (٨٣) حيث قال : ثم تظهر فى النحو مدرسة بغدادية لها طابعها الخاص ولها لونها ولها متعصبوها

ومهما يكن من شىء فهذه هنات يسيرة لا خطر لها ولا أثر فى حسن الكتاب وقيمته . وإنى أشهد مع الدكتور طه بحق أن الأستاذ (أحمد أمين) قد وفق فى هذا الكتاب إلى الاجادة العلمية والفنية ، وكشف عن الحياة العقلية الاسلامية كشفاً ، ثم عرضه عرضاً هو أبعد شىء عن جفاء العلم وجفوته ، وأدنى شىء إلى جمال الفن وعذوبته . فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر الموفق

عبد الوهاب عزام

الدسائس والدماء

أو على بك الكبير

كتاب للأستاذ خيرى سعيد

للأستاذ محمود تيمور

إنها لصفحة مروعة تلك التى قرأناها فى هذا الكتاب . صفحة الدسائس والدماء حقاً . صفحة تصور لك فى أسلوب روائى أخاذ ذلك العصر الدامى الفاجع الذى عاشت فيه مصر حقبة من الزمن ، وهى ترى بعيون ذاهلة وقلب ينبض حسرة وألماً ، ونفس صابرة هذه المشاهد الجهنمية التى تمثل على مسرحها . ذلك هو عصر المماليك الذى أحياه أمامنا فى لباقة صديقنا القصصى الأستاذ خيرى سعيد ، فاستطعنا ونحن نقرأ كتابه أن نحيا فى ذلك العصر نعاشر أهله ونصاحب حكامه ونشهد مواقعه المتلاحقة ، ونحضر حفلاته الرائعة — حفلات الانتصار والاندحار — استطعنا أن نعيش فى ذلك الجو الغريب نشم فيه رائحة البخور ممزوجة بالدم ، ونصغى فيه الى صوت المؤذن يطغى على أنات المحتضرين وصليل السيوف ، وهى تهوى على الرقاب . أجل لقد استطاع الأستاذ خيرى بأوصافه الدقيقة وخياله الواسع أن ينقلنا الى ذلك العصر ويتركنا فيه برهة من الزمن ، شعرنا أثناءها أننا رجعنا القهقرى الى القرون الوسطى ، وأن الدنيا غيرها بالأمس ، فلا كهرباء ولا قهوات ولا ولا . . فاذا أردنا أن ننتقل فعلى الدواب ذات السرج المفضضة والبراذع المنقوشة تخترق بنا الحارات الضيقة . نذهب بها فى نزهة الى الخليج . أو فى مهمة الى بركة الفيل حيث قصور الأمراء . أو فى أمر بيع وشراء الى ساحل بولاق ، ذلك المرفأ النيلى العظيم المزدحم بخيرات البلد . . وإذا أردنا أن نعلم شيئاً مما هو جار من الحوادث تسقطناه إلماماً من أفواه الناس . فهناك فتنة تختمر ، أو مجزرة تستعر ، أو حرب على الحدود تدور رحاها . وإذا أردنا أن نريح أعصابنا ورغبنا فى الترويح عن أنفسنا قصدنا الى دور أصدقائنا العلماء فنحظى بجلسة هادئة نشرب فيها القهوة الفاخرة ، ونتناول العشاء السخى ، ونستمع الى مسامرتهم الجميلة أو الى أناشيد المنشدين . . أجل لقد عشنا حقاً فى مصر فى ذلك العهد القاسى المضطرب . رأينا الأمة منقسمة الى طبقات لا يتعدى أهل الواحدة على الأخرى . فهناك طائفة الفلاحين تعمل طيلة العام لتمون الكُشّاف والسَّناجِق (الأمراء المماليك)

إذ أن الحكم حكم اقطاع . الفلاح آلة نشطة طيعة ليس لها إلا أن تُعطى . ولكنها كانت فى الوقت نفسه آلة ما كرة تعلمت الخبث من هؤلاء السادة الطغاة فاستطاعت أن تراوغهم هازئة بهم . ترشو هذا لتبعد ذاك ، وتعطى جزءاً لتحتفظ لنفسها بأجزاء . ثم هناك الطبقة الحاكمة وهى المماليك ، تلك الطائفة الغريبة التى امتهنت الحكم ورضيت بما يحفه من خطر دائم . طائفة كانوا يشترونها فى الأسواق أطفالاً أرقاء يأتون بهم من مواطنهم فى بلاد الشركس وأواسط آسيا ، وينشئونهم نشأة حربية ، فاذا اما المملوك واكتمل أصبح فارساً يجيد الحرب كما يجيد الحكم . وهو فى الحالتين غدار خبيث يعمل بقول القائل : الغاية تبرر الواسطة . يعيشون طول حياتهم والسيف لا يهمد لحظة فى يدهم . وانك لترى على ملابسهم المزركشة المقصبة المحملة بالخناجر والسيوف بقعاً من الدم كأنها أوسمة فخار . . وإذا ما دخلت دورهم عثرت قدمك برأس أو بضعة رؤوس بشرية تعترض طريقك . فاذا ما أغضيت النظر وتابعت سيرك دوى فى أذنك صراخ مستغيث ، فاذا بهارب يهوى أمامك متخبطاً فى دمه . . هؤلاء المماليك وعلى رأسهم شيخ البلد كانوا حكام مصر الحقيقيين فى تلك الحقبة الرهيبة التى زعم العثمانيون أن البلد فيها إيالة تركية لا أكثر ولا أقل . ولكن أين مظهر تلك التبعية ؟ أفى الباشا الوالى ذلك الحاكم المسكين الذى كان يوليه السلطان حكم مصر فلا يتعدى حكمه دائرة القلعة المسجون فيها ؟ وليته كان يُترك سعيداً بحكم هذه المنطقة الصغيرة . انه كان فيها أشبه بالطرطور يلبسه شيخ البلد . ليس عليه إلا أن يصدر الفرامانات التى يطلبها منه هذا الشيخ ، فاذا عصى فالى العزل أو الحبس أو القتل ! ! أم فى تلك الحامية التركية الضعيفة التى تقص أفرادها على توالى الزمن فاستعيض عنهم بنفر من أهل البلد ؟ . . وهناك غيرهاتين الطائفتين طائفة قوية تحتكم فى ثروة البلد هى طائفة التجار ، تلك التى كانت كلها من أبناء البلد والتى عاشت بالرغم مما انتابها من عسف كان يهد فى ثروتها ، عاشت فى شىء من الرخاء والهدوء ؛ وبجانب هذه الطائفة كانت طبقة العلماء ـ شيوخ الأزهر ـ تلك التى كانت تسيطر على البلاد بقوتها الروحية . وكانت الأمة كلها وحكامها على رأسها تضمر لها الاحترام وتعمل بنصائحها . ولكن هذا لم يكن يمنع عنها بعض الأحيان بطش هؤلاء الحكام وغدرهم

. . . أجل لقد استطاع الأستاذ خيرى سعيد أن ينقلنا إلى ذلك الجو وكأنه أركبنا طيارة وطار بنا على صعيد مصر كلها فاذا بنا نرى النار تشتعل فى كل مكان : حكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف ، وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الادارى يستمتعون بما جنوه من أموال وخيرات ، وبين هؤلاء الحكام وبعضهم حروب لا يخمد لها لهيب ، والناس لا تعرف من الأمن إلا اسمه . فاذا ما سار التاجر بأسطوله النيلى المحمل بخيرات البلد من منطقة الى أخرى وجب عليه دفع الاتاوة إلى شيوخ قطاع الطرق ـ طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف امتهنت السلب وتفننت فيه وأثرت منه ـ وإلا أصاب أسطوله النهب والتحطيم

فى ذلك الجو الخانق ظهر على بك الكبير . وكان كبقية المماليك . عاش منذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الخيانة تطيح برؤوس الأمراء . عاش مملوكاً طيلة حياته تتمثل فى سياسته أساليب القسوة والغدر . ولكنه كان مملوكاً أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر أطماعاً من غيره . تمثلت فيه صفات الملك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر فاستغنى عن الباشا الوالى وأخضع سائر المماليك لحكمه وضرب على أيدى قطاع الطرق . فاستمتعت البلاد فى عهده بالأمن وبشىء من الطمأنينة لم تستمتع بهما فى عهد غيره . وأحست بنوع من الكرامة الوطنية تذكو فى فؤادها . فقد رأت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية ويجعل لمصر مركزاً ممتازاً بين الدول . . . ولكن هذا العهد لم يدم طويلاً ، فقد تألب المماليك المدحورون برياسة محمد بك أبى الذهب مملوك على بك وساعده الأيمن فيما مضى — وشقت عليه عصا الطاعة ، وقاتلته حتى دحرته ، ومن ثم أرجعت الباشا الوالى الى عرشه الواهى المتآكل . . . وعادت الحياة كما كانت قبل أن يحكمها ذلك العاهل الكبير

صور عنيفة جبارة ، يعرضها أمامك المؤلف فى دقة غريبة وتنسيق جميل فى كتابه الدسائس والدماء ، وإنك لتعجب وأنت تقرأ هذه الصحائف الممتعة كيف استطاع الكاتب أن يجمع لك فى كتاب لا يتعدى المائة والخمسين صفحة ، هذه الحوادث الجسيمة والشخصيات المعقدة فى شبه ملحمة لم تدع كبيرة ولا صغيرة عن هذا العهد الا سجلته . ولعلك تعجب أيضاً إذا علمت أن كل فصل من فصول هذا الكتاب يصح أن يكون قصة مستقلة يستطيع مؤلفها أن يملأ بها عشرات الصفحات . . .

قالى صديق خيرى تهنئتى الخالصة وتقديرى الكبير ؟

محمود تيمور